ولا نظير لها الا مغي ومعى وإني من الليل وانى ». ونقل كلامهُ صاحب التاج

(المشرق) تسلقت القرّاء الى هذه المقالة المستساغة وهي كلُّها فوائد تشهد لصاحبها بطول الباع في اللغة وتدحض بعض مزاعم الضياء دحضاً تامًّا

نبذة في المقابر

للاب خليل ادّه اليسوعي

كتبها سنة وقوع تذكار الموتى في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني

هو المشهد يستلفت بلا شك منك الابصار اذا ما ساقتك يوماً الى البلاد الاوربيّة حركة الاشغال او رغبة الاسفار مشهدٌ يستهدف لاعينك حيثما حطّت بك مطايا البخار شرقًا ام غربًا شمالًا ام جنوبًا لم يختصّ بهِ قطرٌ دون غيرهِ بل ولا بلدة دون اختها ألا وهو مشهد المقابر يروقك حسن اتقانها وجميل تنسيقها فهي اشبه بحدائق عامرة للاحياء منها بمنازل داثرة للاموات. والحقُّ يُقال أنهُ لا يشعر من يطأ تربتها غمّ الفراق والوحشة لانَّ أعلام الاستئناس لا تزال في ارجائها بيّنة واضحة فكأنَّ سكّانها غابوا عن العيان وتواردوا لزمنٍ ليس الّا

ولكي يتّضح لك صدق مقالنا فلنصرفنَّ النظر عن المدن الزاهرة التي بوسعها ان تقوم بالنفقات التي تقتضيها زخرفة مقابرها الرحبة فتبذل المال الطائل عن يدٍ سخيّة لاكرام موتاها وهلمَّ الى احدى القرى الضائعة بين الحقول والاحراش واسأل هناك :

اين المقبرة مدينة الموتى (١؟ اين المرقد (٢ ؟ كما سمّاها اليونان واللاتين في لفظة تنطق عن صدق ايمانهم ومستقيم معتقدهم يعتبرون الموتى كقوم واقدين على اسرّة الثرى ينتظرون مجيء مخلّصهم ليفيقوا من سُباتهم لحياةٍ لا رقاد بعدها. لا تجهد نفسك بالتفتيش دونك الكنيسة منتصبة وقد كرّت عليها الاجيال فكست جدرانها بمسحة من جمال القدم. بجانبها يتصاعد الى الاعالي برج مكلّل بصليب كأنهُ يريد خرق القبة الزرقاء مستمطرًا غيث النعم على من لاذ بجوارهِ هناك مرقد المؤمنين «الحقل المقدس(٣» على قول الطليان و « دار الكنيسة » او « دار السلام (٤ » في لغة الجرمان. وقد

١) ترجمة كلمة « Nécropole » المأخوذة عن اليونانية

٢) κοιμητήριον = dormitorium = cimetière

٣) il campo santo ٤) Kirchhof, Friedhof

فُرشت تربتهم ببساط من العشب الناضر تنسّقهُ انواع الزهور على اختلاف الفصول. ذلك فعل الطبيعة ساعدتها يد الاحباب اللبقة وعينهم الساهرة. وناهيك عمَّا يظلّل القبور من اشجار السرو الباسقة المورقة ابدًا فهي كدليل حيّ على خلود النفس بعد انحلال الجسم وحبّذا اشجار الخلاف المتهدّل الاغصان (الصفصاف المستحي) الذي تتلاعب الريح بافنانهِ فيُسمع لها صوت اشبه بصوت ثواكل يُنحنَ على قبر فقيد وحيد

وقلَّما ترى في مقابر القرى بناية مرتفعة اللهمَّ الا مدافن بعض اهل الثروة لكنَّك تجد غالبًا فوق القبور صفحة من رخام او من حجر صُلب طُبع على صفحتها صفات الراقد وآيات تعزّي من بقي وتستعطي صلواتهِ يعلوها صليب بسيط تكلّلهُ زهور نضرة ابدًا لانَّ ايدي الحبين لا تنفكّ تجدّدها

هذا وان الداخل الى الكنيسة والخارج منها يمرّان بين الراقدين ولا جزع من الموتى هم الاخوة والاحباء. والاقارب انتهوا من الرحيل وبلغوا الوطن يُحيّون تحيَّة الهاجعين «وقدتم بسلام» او يزارون ملبًّا ان سنحت فرصة فيُقبّل ضريحهم ويُفاض عليهِ طيب صلاة ذكيَّة ودمع قلب يتلهّف على الفراق ويتوق الى الاجتماع. لا يُنسون ايام السرور والافراح ولا يُتشاءم من ذكراهم. فربَّما يأتي الخطيبان قبل ان ينحنيا تحت يد الكاهن المكلّل فيجثوان على قبر والديهما طالبَين بركتهما. وكذلك الطفل الرضيع قبل ان يُحمل الى جرن العماد ربَّما وضع على ضريح جدّهِ الراقد حديثًا وقد طال ما بقي لهُ خلفًا. والجالي عن الاوطان لا يزايلها قبل توديع من في الرقد من الاحباب والقافل بعد طول الغيبة لا ينسى زيارة من سافر الى الابدية في اثناء رحلتهِ

فلله ما اجمل هذا الائتلاف فالاموات احياء واراهم عن الاعين ستار الابديَّة وما حال دون التعاشر. لا تزال الارواح تتواصل مودَّتها وان فنيت الاجسام وتتفاوض السنتها ولو بلا شقشقة الكلام لان عين الايمان لا تنظر الى الموت هادم اللذات ومُفني الاعمار ومعري الاجسام يجعلها كما قال بوسويت (Bossuet) شيئًا لا اسم لهُ في لغة من اللغات بل تعدُّهُ كمخلّص يحلّ قيود النفس الطالبة راحتها في حضن الله فتطير وتستقرّ في وكنة سعادتها. ونعم ما قالهُ الشاعر اللاهوتي دانتي (Dante) في هذا المعنى:

« أما ترى اني دودةٌ خلقتُ لتحوّل فراشةً ملائكيّة تطير بلا عوائق الى عالم الابديّة » (١

واذا ما اهلّ شهر تشرين الثاني تقاطر الاهالون جما غفيرًا الى الكنيسة والمقبرة يزورون موتاهم ويتحفونهم بصلواتهم . واليك شاهدا على شديد تمسُّك الافرنج بهذه العادة الحميدة يغنيك عن اسهاب الكلام :

وقع الجدال سنة ١٨٦٨ بين اعضاء دار الندوة الافرنسيّة (Corps Législatif) في شأن ابعاد المقابر عن باريس فعارض جول سيمون هذا الاقتراح اشدَّ معارضة . ومما قالهُ : « عما يومان في السنة عيد جميع القديسين ويوم الموتى اعتاد فيهما شعب باريس ذاك الذي طالما نُسب الى قلة الدين ان يتقاطر الى المقابر افواجًا لا ينقصون عددًا عن الثمانمائة الف (وكانت وقتئذٍ سكّان باريس الف الف وثمانمائة الف نسمة) اما ترون انكم بابعاد المقابر تقلّلون عدد الزوّار . . . ومن ثمَّ تضعضعون أشرف ما في الانفس من عواطف البرّ . ذاكم الداعي لتكدير خاطري » . وما كان احرى هذا الخطيب ان يضطرب بالًا . فكم من ضالٍّ عن باب الكنيسة اهتدى اليها في ذينك اليومين يدعوهُ قبر والدٍ او ينذرهُ صوت زوجةٍ او لحد ولدٍ حبيب فلا يصمّ عنهم سمعهُ

أجل وثيقٌ هو ركن هذه العبادة لأنهُ مبني على اصح دعائم الايمان المسيحي وذلك ان الكنيسة جسمٌ واحد اعضاؤهُ في السماء منتصرون وفي المطهر منتظرون وعلى الارض مكافحون أفكرّم اخوتنا الظافرين وننسى الجرحى المنكوبين ؟ لا لعمري فانَّ محبة المسيح وكنيستهِ لا تنفصل ما جمعهُ الله

وليس تذكار الموتى هذا اختراعًا حديثًا كما يتوهّمهُ من لا معرفة لهُ في التاريخ بل هو عريق في القدم تمتدُّ اصولهُ حتى الازمنة الرسوليّة وتشهد بذلك كتابات اقدم الآباء (٢ مثل ترتليانس في الجيل الثاني فانهُ يذكر الصلوات للموتى كعادة أُخذت عن السلف اعني المسيحيين المعاصرين للرسل . قال القديس اغوسطين (٣ : ان الكنيسة قد رسمت تضرّعات عموميّة لراحة نفوس المائتين في الجمعيّة المسيحيّة دون ان تخصّ

١) Dante : *Purgatoire*. Chant X

٢) راجع مرتيني Mortigny : *Dictionnaire des Antiquités*, art. *Fêtes* IX

٣) راجع مبحره De cura pro Mortuis gerenda IV

احدهم بالذكر فمن لم يبقَ لهُ على الارض والد او ولد او صديق يذكرهُ توأت الكنيسة ذكرهُ نيابةً عن الاحباب. وذلك شأن الامّ المملوءة حبًا ورأفة». ويُستنتج من كلام فم الذهب (١ في بعض خطبهِ القاها في مقبرة من مقابر انطاكية يوم الجمعة العظيمة ان تذكار الموتى في عهدهِ ربَّما كان يوم الجمعة هذه وعلى كل حال لا نشكّ في انَّ الكنيسة جعلت يومًا محدودًا لهذه المبارّ لا نعلم يقينًا تاريخهُ الّا انَّ القديس اوديلون رئيس كلوني (Cluny) في الجيل العاشر عيَّن اليوم الثاني من تشرين الثاني فجرت عادةً اتَّخذها اللاتين الى عهدنا ونعم العادة كما سبق القول

٢

هذا ما نراهُ في اوربَّة وما ابعدنا نحن ابناء المشرق المسيحيين عن اقتفاء آثار اخوتنا الحميدة والاقتداء بجميل حرصهم على اكرام موتاهم. تحزن العين ويتوجَّع القلب لما نحن عليهِ عمومًا من الاهمال والتهاون في اقام واجب تفترضهُ العقائد الدينيَّة بل عواطف الانسانيَّة. اين المقابر في غالب انحائنا ؟ وليس الكلام عن القرى بل ايضًا عن بعض المدن. اين مرقد المؤمنين والحقل المقدَّس ؟ اني استنكف عن الجواب. مقابرنا في الغالب ارض موات بعيدة عن المساكن لا سياج حولها ولا ظلّ صليب يخفرها تأنف الاحياء مقاربتها ولا حرج لان رائحة النتن تنبعث منها على بعد مسافة طويلة. وان قويتَ على قهر حنكك واقتربت رأيتَ ما يرتاع لهُ البدن. هنا عظام رميمة وجماجم منتشرة واضلاع منتثرة تطأها رجلك بين التراب وقطع اخشاب بالية. هناك بعض حجار مكوَّمة او سافة تراب رقيقة لا تكاد تغطّي جثة ميتٍ لا يحويه تابوت. هذا قبر نبشتهُ الكلاب او بنات آوى فاكلت ما تيسَّر لها. ويا ليت الوحوش وحدها تثب على المقابر فكم من مرَّة استفزَّ الطمع لصوصًا اشبه بالبهائم فسلبوا ما عهدوهُ على الميت من الحليّ. لا تتهمني بالغلو أيها القارئ اللبيب حسبي الاشارة الى هذه الامور الفجيعة كي تتسابق الى الاذهان صور الاماكن واسماء الاشخاص والحوادث ممَّا لا يدع ريبًا لمرتاب

لمَ لم نقتصّ اثار اجدادنا سكَّان سوريَّة في الاجيال الاولى. قال الاب جوليان اليسوعي: ما كان السوريُّون ليرتاعوا من منظر القبور بل يعرضونها على الاعين في

(١ عظتهُ الـ ٥٧ (édit. de Montfaucon)

حدائقهم بالقرب من منازلهم حتى في اسفل مساكنهم » (١ فكان الرجل اذا توفّاهُ الله لم يتغيّر مقرّهُ في بيت اجدادهِ بل ينزل في اعماق دارهِ كي يرقد براحة لا تستطيع تكديرها حركة الحوادث الزمنيّة لا يُنسى كما لا يُنسى مَن رقد وطال رقادهُ

وما امتن ما كانت هذه القبور واحكم صنعتها. تُحفر في الصخور او تُنحت في نواويس من الحجر الصلب كي لا تقوى عليها طوارق الحدثان لعلمهم بانَّ قصور الاحياء تصير يومًا الى الخراب ولا يأوي اليها الناس الّا بضع سنين ثمَّ تغتالها يد الزمان فتصير خرابًا يبابًا. امَّا منازل الاموات فانّها تبقى اجيالًا طويلة ريثما تؤوب الى الاجساد ارواحها

وكانت زينة هذه القبور جميلة. وما كان آباؤنا ليكتفوا بتشييد سكناتهم الاخيرة على اساس لا يزعزعهُ الدهر بل يتفاخرون بحسن تنسيقها ما استطاعوا كيف لا وهي للمسيحي كدهليز دار السعادة ورواق قصر الخلود ترى عليها رسم الصليب المقدّس او اسم المسيح بحروف مشتبكة (Monogramme) بين اكاليل الزهور او غيرها من النقوش الرمزيّة تصحبها كتابات تارةً تثبت ايمان الراقدين ورجاءهم وتارةً تستعطي زكاة صلاتهم كما ترى في الكتابات الآتية :

« لانك قلتَ الرب معتصمي وجعلتَ العليَّ لك مونلًا لا يصيبك شر ولا تدنو ضربة من خبائك » (المزمور ٩٠ , ٩ , ١٠)

« بيزوس بن بارادوس . عيشي كان حسنًا وكذلك مجيئي ورقادي صلوا لاجلي » (٢

ومن اجمل الكتابات وابلغها بوجيز عبارتها التحيّة « بالسلام » ἐν εἰρήνῃ in pace, (٣ تقرأ على اكثر القبور في اوائل النصرانيّة شرقًا وغربًا وتشهد ان الراقد ابن الكنيسة . هي تحيّة المسيح لتلاميذهِ « السلام لكم » اتخذتها الكنيسة في بادئ امرها واستعملتها في رتبها المقدّسة ثم رقمتها على قبور ابنائها . واساليبها متنوّعة دعائيّة انشائيّة « ارقد بسلام الرب ». « عش دائمًا بسلام » او « مع الله بسلام ». « يردّ الله عليك بسلام »

---

١) P. Jullien : *Sinaï et Syrie*, p. 126, 188 ; de Vogüé : *Syrie Centrale*

٢) راجع P. Jullien, *op. cit.* p. 229 ; de Vogüé : *Syrie Centrale* p. 113, planche 91

٣) قد وردت ايضًا هذه الكتابة على بعض قبور اليهود الّا ان الرموز التي تصحب هذه التحية لا تبقي شكًّا في ان المقبورين من النصارى راجع Martigny, *art.* in pace

ومنها ما يُطلب فيها للفقيد ان يحظى سريعاً بمعاينة الله فيقرؤن كذلك بوجود مكانٍ ثالث بين السماء والجحيم اذ لا يُشتهى لاحد نوال ما قد نالهُ او ما يتعذَّر عليهِ قطعاً نوالهُ

ومنها ما ورد على صورة الجملة الخبريَّة: « رقد بسلام » — « ارتاح بسلام الرب » — « قفل بسلام (الى الوطن السماوي) » — « استُقبل بسلام » (اي من الملائكة) — « وُلد بسلام » (الى الحياة الابديَّة)

وكثيرًا ما يصحب هذه الكتابات اناء الدم وهو الدليل القاطع على ان الراقد حاز اكليل الشهادة ودخل توًا في فرح ربّهِ فلا يجوز والحالة هذه الدعاء لاجلهِ بل هو اولى ان يتشفَّع بنا لان الصلاة لاجل الطوباويين اهانة كما صرَّح بهِ اوغسطينوس (١

وربَّما وُجد على القبور شيء من الادعية على من يهتك حمى القبور . وكان عهد السلاطين المسيحيين الاولين بعض السفلة يفتحون القبور خفيةً اما لدفن موتاهم في مكانها اذ ما كان يتيسَّر لهم من شدَّة فقرهم انفاق ما يقتضيهِ بناء جديد واما ايضاً طمعاً في سلب الحليّ والنفائس . دونك لعنةً تظهر ان المسيحيين الاولين كانوا يقدّرون سلطة الجامع تقديرهم للاناجيل ذاتها :

« ليكن محروماً مع يهوذا من دفن عليّ رجلاً آخر . ليحرمهُ الآباء الثلاثمائة والثمانية عشر الذين اوضحوا القوانين مع الانجيليين الاربعة » (٢

وما فشا هذا الخلل الَّا في الجيل السادس اما قبل هذا العهد فقلَّما نرى لهُ اثرًا وان وُجد شيء فتراهُ على صورةٍ تُشعر بمزيد الرقة والوداعة . « ارجوكم بالمسيح الَّا ينتصبني احد ولا يخرق حرمة قبري »

ولا يخفى على احد ما في هذا كلهِ من الدلائل على اعتناء المسيحيين الاولين بقبورهم وموتاهم

فناشدتك الله لِمَ الحرص الزائد ؟ لِمَ الاهتمام بما هو فانٍ ؟ هل يمسّ النفسَ من ضرر ان لم يحوِ الجسدَ لحدٌ او ضريح ؟ لا وعمر الحق لا يخالج فكر عاقل هذا التوهم الخسيف وان اعتقد ذلك بعض الوثنيين من القدماء واليهِ قد اشار الشاعر اللاتيني (فيرجيليوس) بقولهِ (٣ :

---

١) في عظة ١٠٩ ٢) راجع Martigny, *art.* Anathème

٣) Virgile, Enéide L. VI v. 327-328

« لا تستطيع الروح مزايلة هذه الشطوط الغطيعة ولا تجاز النهر العجّاج (١ قبل ان ترتاح العظام في اللحد »

وذهب بعض اعداء النصرانيّة في اوائلها ان اعتناء المسيحيين بدفن موتاهم وانكارهم لحرق جثث الموتى كما جرت العادة مدّةً بين الرومان انما هو ناجم عن خوفهم ان تتعذّر قيامتهم ولكنّهُ قد افترى مَن قذفنا بمثل هذه الحماقة وقد ردَّ منذ اجيال على فاسد مُدّعاهُ مينوسيوس فيليكس (Minutius Felix) قائلًا: « اما هي حماقة لا نهاية بعدها ان ننكر على الرب الذي خلق الانسان وانتشلهُ من العدم القدرة على نشرهِ من القبر كما كان . . . اننا لا نخاف من حرق اجسادنا ولكنّنا نتبع احسن عادة واقدمها »

هذه العادة التي هي الاقدم والافضل قد اخذها المسيحيون عن الآباء والانبياء وخصوصاً عن السيد المسيح لهُ المجد وقد « وُضع في قبر منحوت لم يكن قد قُبر فيهِ احدٌ ». وكان في هذه الآية تعليم لنا ففقهتهُ الكنيسة منذ الابتداء ومشت بموجبهِ حتى في رسم قبور ابنائها

وان اردنا الداعي الاخير في ذلك اجاب الى سؤالنا القديس اغوسطينوس(٢ :

« لا نهملنّ اجساد الذين ماتوا لاسيما المؤمنين واهل الصلاح فانّها آلات يحركها الروح القدس لكل اعمال البرّ

« يضنّ البنون بثوب والدٍ او خاتمهِ الى غير ذلك ويزيد تنافسهم بذلك على قدر حبّهم للاقارب فكيف بالاجسام وهي ليست فقط لباساً او زينةً للانسان بل جزءاً من طبيعتهِ . ولذا كان يُعتنى كل الاعتناء في العهد القديم بجنازة الاصدقاء ودفنهم حتى انهم هم انفسهم اوصوا بنيهم بحسن القيام بهذه المبارّ الاخيرة او بنقل اجسادهم من مكان الى آخر . هذا طوبيا البار قد أُثني عليهِ لانهُ كان يدفن الموتى وشهد لهُ الملاك انهُ نال من وراء ذلك حظوةً في اعين الله . والمسيح لهُ المجد وان كان عارفاً بقيامتهِ من الاموات بعد ثلاثٍ فقد مدح فعل تلك التي افاضت عليهِ طيباً ذكيًّا لدفنهِ وامر بالانذار بهِ في المسكونة كلها تذكاراً لها (لوقا ٢٣)

نعم ان لا يستدلّ من هذه الشهادات ان في جثث الموتى ادنى حسّ ولكن ان

---

١) نهر الستيكس (Styx) الذي في معتقدهم الفاسد يجب عبورهُ قبل الدينونة والراحة الابدية

٢) راجع كتاب مدينة الله للقديس اغوسطينوس ك ١ ف ١٣

الباري يحيطها بعنايته الالهيّة لاجل الايمان بالبعث فضلًا عن ان هذه الاعمال المبرورة مقبولة لديه ». اذًا نكرّم اجسام المؤمنين لانها هياكل الروح القدس ولكي يتقوّى فينا الايمان بالبعث

وهناك سبب آخر اشار اليه القديس المذكور وهو ان القبور تذكّرنا بمن مات كي نصلّي لاجله ان كان في حاجة الى ذلك او نتلّي اليه ان كان ممن نشر الله عرف فضائله وزاد كرامته عنده. ويؤيد هذا القول اسم التبر عند الروم واليونان μνημεῖον memoria تذكارًا او ذاكرة (١. وعليه كان المسيحيون الاوّلون يرغبون في تشييد مقابرهم بالقرب من ضرائح القديسين فاذا أمّها الزوّار تقصّد التبرك بها صلوا عندها ايضًا لمن طلب جوارهم على الارض كي يحظى بسعادتهم في السماء.

هذا وان لم يتيسّر لنا دفن احبائنا بالاكرام الواجب فلا يجوز اهمال التضرّعات التي ترفع الى عرش العزّة الالهيّة بايمان صحيح (٢ وتقوى لاجل الموتى والّا فلا فائدة مطلقًا للنفس ان يكون الجسد مدفونًا في اي مكان مقدّس كان

وبالاحرى لا فائدة البتة لمن اكتفى بتشييد ضريح شائق على جثمان فقيده إلّم يَسْعَ في اسعاف نفسه بالمبرّات لاسيما تقدمة الذبيحة الالهيّة كي يُنيلها الله الراحة الدائمة

فتوى المقتطف في الضمير

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

للمقتطف فتاوى لم تدُر على خلد احد من ائمة الحكماء. وهي اذا عُرضت على محكّ

---

١) راجع عظة القديس اوغسطينوس السادسة عن الموتى. هذا ولا يدحض هذا القول ان الاسم المذكور وُضع قبل النصرانيّة لان الكنيسة اثبتت ما كان مطابقًا لمقاصدها شرط ان تغيّر ما غلطتْ الطبيعة

٢) اننا نقرأ في سفر المكابيين (١٢-٤٣) انهُ قُدمت الذبيحة لاجل الموتى وان لم يرد شيء من ذلك صلاحًا في كلّ الاسفار القديمة فخطير هو حكم الكنيسة الجامعة مثبتةً هذه العادة لتنال انفس المائتين حظها في الصلوات التي يتلوها الكاهن على مذبح الربّ. قال القديس اوغسطينوس: « قد احسن الرسل اذ اوصوا ان تذكر الموتى في وقت الذبيحة المقدّسة لعلمهم حق العلم ان للموتى من هذه الصلوات عظم الفائدة »
S' Jean Chrysostôme, Hom. 69 ad pop.